

تفسير ابن كثير

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ

[يقال : مثل ومثل ومثيل - أيضا - والجمع أمثال ، قال الله تعالى : (وتلك الأمثال

نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) [العنكبوت : 43] . وتقدير هذا المثل : أن الله

سبحانه ، شبههم في اشتراطهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى ، بمن

استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنس بها

فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، وهو مع

ذلك أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصر ؛ فلهذا لا يرجع إلى ما

كان عليه قبل ذلك ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى ،

واستحبابهم الغي على الرشد . وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، كما أخبر

عنهم تعالى في غير هذا الموضع ، والله أعلم . وقد حكى هذا الذي قلناه فخر الدين الرازي

في تفسيره عن السدي ثم قال : والتشبيه هاهنا في غاية الصحة ؛ لأنهم بإيمانهم اكتسبوا

أولا نورا ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك النور فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين .وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات ، واحتج بقوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) [البقرة : 8] .والصواب : أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم ، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ، ثم سلبوه وطبع على قلوبهم ، ولم يستحضر ابن جرير - رحمه الله - هذه الآية هاهنا وهي قوله تعالى : (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) [المنافقون : 3] ؛ فلهذا وجه [ابن جرير] هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهوره من كلمة الإيمان ، أي في الدنيا ، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة .قال : وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد ، كما قال : (رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت) [الأحزاب : 19] أي : كدوران عيني الذي يغشى عليه من الموت ، وقال تعالى : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) [لقمان : 28] وقال تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) [الجمعة : 5] ، وقال بعضهم : تقدير الكلام : مثل قصتهم كقصه الذي استوقد نارا . وقال

بعضهم : المستوقد واحد لجماعة معه . وقال آخرون : الذي هاهنا بمعنى الذين كما قال الشاعر: وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد قلت : وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع ، في قوله تعالى : (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون) وهذا أفصح في الكلام ، وأبلغ في النظام ، وقوله تعالى : (ذهب الله بنورهم) أي : ذهب عنهم ما ينفعهم ، وهو النور ، وأبقى لهم ما يضرهم ، وهو الإحراق والدخان (وتركهم في ظلمات) وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ، (لا يبصرون) لا يهتدون إلى سبل خير ولا يعرفونها